

تجليات الأنسنة في أشعار نازك الملائكة وبروين اعتصامي من منظار سوسولوجية الأدب

رسول بلاوي^١، خليل حمداوي^٢

١. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة خليج فارس، بوشهر
٢. طالب ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة خليج فارس، بوشهر

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٦/٤/٤؛ تاريخ القبول: ٢٠١٦/٩/١٧)

الملخص

تعد سوسولوجية الأدب فرعاً من فروع علم الاجتماع العام، وهي تهتم بدراسة الظواهر الفنيّة والأدبية لمعرفة بثية الشاعر واجتماعه. ومن أهمّ موضوعات السوسولوجية الأدبية التي يجدر معالجتها في النصوص الشعرية وتمحيصها هي الأنسنة؛ والأنسنة تركّز على إصالة الإنسان ومحوريته، وهي عملية تطوير الإنسان ليصبح مؤمناً بحقوق كل البشر في الحرية والعدالة الإجتماعية بقناعة ذاتية. وقد تجلّت ظواهر الأنسنة وأبعادها بكتافة ملفتة في أشعار الشاعرتين نازك الملائكة وبروين اعتصامي؛ ففي هذه الدراسة حاولنا أن نقارن بين هذه الصور الإنسانية المشتركة بينهما من منظار سوسولوجية الأدب. هذه الدراسة تهدف إلى تمحيص القواسم الإجتماعية المشتركة في نتاج هاتين الشاعرتين، وتبيّن أهمّ الظواهر والهواجس الإنسانية التي شغلت بالهما وفقاً للمنهج الوصفي- التحليلي وفي ضوء الأدب المقارن حتى نتوصل إلى الأجواء الإجتماعية السائدة والمشاركة في المجتمعين. استخدمت الشاعرتان أداة الشعر للنظر إلى القضايا الإنسانية تأثراً بالظروف الإجتماعية والسياسية، وإنّنا في هذا البحث سنبيّن هذه التأثيرات في تجلّي ظاهرة الأنسنة، كما نبيّن نظرتيها إلى المرأة، والسلطة الأبوية/ البطريكية، والوقوف بوجه الظلم والإستبداد، والفقر، والفجوات الطبقيّة. وقد توصلنا إلى نتيجة مفادها أنّ تشابه الظروف الإجتماعية، والسياسيّة والثقافية في إيران والعراق آنذاك أدّى إلى تشابه كبير في فحوي أشعارهما على الأخص في مجال القضايا الإنسانية. أشعار نازك تخرج من صميم قلب تجرّع المشاكل والآلام، ولو أنّها تفتقد إلى روح التمرد والتحدّي لكنّها تتخطّى حدود العراق لتشمل الدول العربية الأخرى، خلافاً لأشعار بروين التي تتسم بمشاعر ونظرة نسائية بارزة وقد ركّزت فيها على قضايا المجتمع الإيراني بكل طبقاته.

الكلمات الرئيسية

بروين اعتصامي، الأنسنة، السوسولوجية، نازك الملائكة.

مقدمة

النزعة الإنسانية - الأنسنة - هي اتجاه فكري عام تقرّ بأنّ الإنسان هو مصدر المعرفة وتؤكد على فردية الإنسان ضد المظاهر الأخرى؛ وتمثّل النزعة الإنسانية تياراً ثقافياً ازدهر في أوروبا وكان ينظر إلى العالم بالتركيز على أهمية الإنسان ومكانه في الكون. لقد حظي الشعر الإنساني منذ قديم الزمن باهتمام الشعراء العرب والإيرانيين، لكنهم قد بذلوا عناية واكتراثاً به منذ المنتصف الثاني من القرن العشرين على نطاق واسع، فبعدها وعى الشاعر بما يجري في المجتمع من حقائق طوال قرون من التخلف المتكدر، حاول إشراك أشعاره وآثاره في بناء حركة حديثة، وسعى إلى معالجة ما يعانيه المجتمع من أمراض بأشعاره. بعبارة أخرى فإنّ الواقع الاجتماعي المعاش يخلق الأدب وكذلك أنواع التيارات الأدبية.

إنّ العلاقة الوطيدة بين الأدب والمجتمع تشكّل همزة وصل، يصبح بالإمكان رسم المناخ السائد على المجتمع طوال مختلف الفترات الزمنية. وقد لعبت كلمات وأشعار بعض الشعراء التقليديين دوراً بارزاً في توعية جماهير الناس ومعرفتهم بالتطورات الاجتماعية والسياسية. (مدني، ١٣٨٦ش: ١٧٣) من هنا يمكن القول بأنّ الآثار الأدبية لم تتكوّن في الفراغ ومن دون أرضية مسبقة، بل إنّها ترى النور وسط أجواء إجتماعية محيطية بها، ونظراً إلى المقولة التي تقول بأنّ الشاعر نتاج عصره وابن بيئته دوماً، فنرى تأثيره بالمجتمع ومختلف القضايا وتأثره عليها بجلاء ووضوح.

تظهر دراسة أشعار نازك الملائكة وبروين اعتصامي اتساقاً فكرياً في أشعارهما ونشاطاتهما الإجتماعية الإنسانية، دون أن يكون هناك تعاملاً بين الشاعرتين، وتشكّل القضايا الإنسانية والشعبية دائرة اهتماماتهما وهواجسهما، فيظهر في أشعارهما نوع من الشعور بالمسؤولية قلّ نظيره، أمام الضعفاء وردود فعلهم في مواجهة أسباب التخلف وتأثيره على الشعب، فهكذا أبدت الشاعرتان ردة فعلهما بلغة الشعر تجاه القضايا. والسبب يعود إلى كونهما تأثرا بالمجتمع وما يتعرّض له من تغييرات، ف«ليس من شك في أن رؤية كل شاعر للإنسان تختلف عن غيره من الشعراء، إذ يستحيل على أي شاعر أن يكتب عن كل جوانب الإنسان فهو لا يرى فيه إلا ما يستشعره في نفسه عن أحاسيس وعواطف وأفكار» (هدارة، ١٩٩٠م: ١٤٨). فلو ألقينا نظرة على أشعار نازك الملائكة وبروين اعتصامي لرأينا النظرة

الإنسانية المنبثقة عن حب الإنسان، بوضوح وجلاء في أشعارهما ونرى قضايا المجتمع وهموم الناس يشكّلان ركيزتين لكل المقاربات والرؤى. وفي الحقيقة ما يعانيه المجتمع من آلام وتخلّفات وأجواء متوتّرة، تشكّل فحوى القواسم المشتركة بين الشاعرتين.

نظراً إلى إنّ الشاعرتين كانتا تعيشان في بلدين مجاورين حاملين لثقافة إسلامية- شرقية مماثلة إلى حد كبير، فيبدو أنّ أشعارهما بإمكانها أن توفر الأرضية الملائمة للدراسات التي تتمحور حول الأدب المقارن. هذه الدراسة على أساس المنهج الأمريكي في الأدب المقارن تهدف إلى معالجة تجليات ظاهرة الأنسنة في أشعار الشاعرتين من منظار سوسولوجي، وكذلك تتطرقّ بالتحليل إلى بعض أشعارهما، أي تلك التي احتضت بالإنسانية، ففي الواقع تشكّل دراسة تجليات الأنسنة في شعر الشاعرتين، هدفاً لإنجاز هذا المقال. فمن هذا المنطلق يرتبط بحثنا هذا بسوسولوجية الأدب ارتباطاً وثيقاً حيث يهتم بدراسة الظواهر الفنيّة والأدبية لمعرفة بنية الشاعرتين واجتماعهما.

منهج البحث

إنّ هذه الدراسة على أساس المنهج الأمريكي في الأدب المقارن تتبنّى المقارنة بأسلوب وصفي- تحليلي، من خلال دراسة أهمّ الأشعار التي نشأت على صعيد علاقة الأدب بالمجتمع، فتقوم بنقد وتحليل الأمثلة، إضافة إلى تقديمها تعريفاً وجيزاً للأنسنة والسوسولوجية، وعلاقتها بالأدب، ثم إلقاء الضوء على سيرة حياة الشاعرتين، بغية التمهيد في جوانب القضايا الإنسانية كما تبلورت في أشعار الشاعرتين. وهذه الدراسة تُعتبر دراسة كميّة نوعيّة من خلال تركيزها على نماذج من شعر الشاعرتين وتحديد نطاقها على وصف الأحداث اليومية في الحياة الاجتماعيّة زمن الشاعرتين. فقد قمنا برصد الشواهد التي وردت في دواوينهما واستخراجها، ثم تحليلها تحليلاً فنياً يكشف عن الجانب الإنساني.

أسئلة البحث

هذه الدراسة تحاول الإجابة عن الأسئلة التالية:

كيف تجلّت الأنسنة في أشعار نازك الملائكة وبروين اعتصامي؟ ما هي القواسم المشتركة بين فحوى الأنسنة في شعر الشاعرتين؟ إلى أي مدى تعبّر الأنسنة في أشعارهما عن الرؤية الانتقادية لبيئتهما وابداءهما الاحتجاج على ما يجري في المجتمع؟

هدف الدراسة

إنّ الهدف من هذه الدراسة هو البحث في جوانب الأدب العربي والفارسي، عند لقاء الشاعر نظرته على المشاكل الاجتماعية والإنسانية التي قد تتشابه كثيراً والسبب الرئيسي هو التاريخ المشترك لهذه المنطقة وما يحمله مخيالها.

خلفية البحث

تعدّ كل من نازك الملائكة وبروين اعتصامي من أبرز الشعراء في الأدبين العربي والفارسي، ولاشك أنّ هناك دراسات كثيرة اهتمت بعالم أشعارهما الرحب سواء قد خرجت في الصفحات بشكل منفصل أو في إطار أدب المقارنة نشير فيما يلي إلى بعض منها:

فيما يتعلق بنازك الملائكة تجدر الإشارة إلى كتاب يحمل عنوان "دراسة في شعر نازك الملائكة" للمؤلف محمد عبد المنعم خاطر، من إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٠م. يتطرق هذا الكتاب إلى شعر نازك ويعالجه بالنقد والدراسة. هناك مقال يحمل عنوان "نقد ودراسة الألوان في شعر نازك الملائكة"، لعلي بيراني شال، عام ١٣٩٢، نشر في فصلية دراسات الأدب المعاصر. هذا المقال يعالج الألوان ودلالاتها في شعر نازك الملائكة. أيضاً مقال آخر يحمل عنوان "بررسی وتحليل شعر نازك الملائكة" لمحمود آبدانان وكبرى خسروي، نشر في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة فردوسي مشهد، عام ١٣٨٦ش. التركيز في هذا المقال أنصبّ على دراسة أهم ما ورد في شعر نازك الملائكة من قضايا مثل الحزن والقضايا السياسية في عصر الشاعرة والعشق. أيضاً دراسة مقارنة تحمل عنوان "الموت في شعر السياب ونازك الملائكة" تقدّم بها عيسى سلمان درويش إلى مجلس كلية التربية في جامعة بابل عام ١٤٢٣هـ. ويتناول فيها موضوع الموت في شعر السياب ونازك الملائكة.

أما عند الحديث عن بروين اعتصامي نرى وفرة الأبحاث والمقالات حول شعرها، منها مقالة "تبين مؤلفه های هويت سنتي در مورد زن در شعر پروين اعتصامي" لـ مريم صادق كيوي وبهاره برهيزكاري، نشرت في مجلة أبحاث اللغة والأدب الفارسي (پژوهش زبان وادبيات فارسي). في هذا المقال تمّت دراسة أفكار بروين حول المرأة في شطري التقليدي والحديث. كما نشرت في مجلة بحوث لغوية (دوفصلنامه زبان پژوهی) في جامعة الزهراء مقالاً بعنوان "تمایز گونگی جنسیت در اشعار پروین اعتصامي" لـ آزاده شريفی مقدم وآنهيता برديباري.

تطلق الكاتبتان على بروين الشاعرة ذات النزعة الرجولية في إنشاد الأشعار استناداً على الفوارق الجنسية الواضحة. وفي مجال الأدب المقارن هناك مقال موسوم بـ "عشق در آيينه أشعار پروين اعتصامي ونازك الملائكة" لـ لاله احيائي وكبرى خسروي عام ١٣٨٦، مجلة (سرخ عشق). تبذل المقالة سعياً لدراسة مفهوم الحب في الشعر الفارسي والعربي وبالتركيز على نتاج الشاعرتين، والحديث عن أحوالهما في التعبير عن الحالات العاطفية والشوق الذي يغلي في ذاتهما. هناك مقالة أخرى تحمل عنوان "بررسي تطبيقي سبك زباني وفكري وواكايي زبان جنسيتي در أشعار پروين اعتصامي ونازك الملائكة"، لقاسم مختاري ومعصومة درخشان، عام ١٣٩٢ش في مجلة (كاوش نامه للأدب المقارن): المقالة تقارن بين أسلوب الشاعرتين في مستوى اللغة والفكر، وتحاول أن تبين لغتهما النسوية من خلال التركيز على سلوكياتهما وأخلاقهما. فهذه الدراسات بالرغم من قيمة نتائجها وثراءها العلمي إلا أنها لم تطل على الأنسنة في نتاج هاتين الشاعرتين، ودراستنا هذه تعد خطوة حديثة في هذا المجال فقد ركزت على قضية الأنسنة في أشعار نازك الملائكة وبروين اعتصامي من منظار سوسولوجية الأدب لكي تخرج بنتائج أدق.

الأنسنة وسماتها

إن مفردة "الأنسنة" تعني الإحتفاء بالإنسان والبشرية، و«ظهرت هذه المدرسة أول مرة بداية القرن التاسع عشر وبالتحديد عام ١٨٠٨» (حسني، ١٣٩٢ش: ٢). الأنسنة هي أساس الفكر الغربي الحديث بعبارة أخرى إن ما يميّز الغرب الحديث عن الفترات التاريخية الأخرى التي مرّ بها، هو الأنسنة. فـ «حركة الأنسنة التي طرحت نفسها بادئ الأمر كنزعة، تحولت في مسار نموها في القرن السادس عشر إلى فلسفة أسلوب تفكّر خاص بشعار» أنا أفكّر إذن أنا موجود" أو ما يعرف بـ (الدليل الوجودي الكوجيتيو)، وفي هذا المجال تحدّث ديكرارت عن الإنسان بصفته أساساً للكون» (صانع بور، ١٣٧٨ش: ١٠-١١).

تطلق الأنسنة على كل فلسفة تمنح الإنسان مكانة خاصة وتجعله محوراً ومعياراً لكل شيء؛ (حسني، ١٣٩٢ش: ٣) إن هذه المدرسة تجعل الإنسان محوراً للقيم، أي تمنح الأصالة والإرادة للإنسان، فكل شيء في هذه المدرسة ينطلق من الإنسان ويتمحور حوله. فـ «مفاهيم مثل الاختيار والحرية الإنسانية كانت دوماً محل إشادتهم» (بيات، ١٣٨٦ش: ٤١-٤٢).

تاريخياً ركزت حركة الأنسنة جُل اهتمامها على الهروب من الوضع السائد في القرون الوسطى، ونفوذ الكنيسة؛ فأصحاب هذه النزعة رحّبوا في خضم ترتيب أوراق أفكارهم في الأطر العلمية والفلسفية بالأفكار التي خرجت من رحم الصراع مع النظام السائد في القرون الوسطى.

على كلٍ منذ القرن الرابع عشر للميلاد حتى يومنا هذا ركزت الأنسنة في مفهومها الشامل على المكونات التالية: محورية الإنسان، والإيمان بالعقل كوسيلة لكشف الحقيقة، وبناء المجتمع الإنساني، والإيمان بالأسس الأخلاقية، والتأكيد على الديمقراطية بصفقتها أفضل ما يضمن تحقيق حقوق الإنسان في مواجهة سلطة الحكّام وغطرستهم. لأنّ «الأنسنة تتحمّل كلّ تحديات الوضع البشري الواقع دائماً تحت اختبار العنف والإضطهاد للذين يتجدّدان باستمرار» (اركون، ٢٠١٠م: ٦٢).

سوسيولوجية الأدب

تعدّ سوسيولوجية الأدب أو علم الاجتماع الأدبي، فرعاً من فروع علم الاجتماع العام ويهتم هذا الفرع بدراسة الظواهر الفنية والأدبية في ضوء مقومات وظواهر إجتماعية؛ فهي دراسة علمية تنظر في فحوى الأثر الأدبي وجوهره في علاقته بجوانب الحياة الاجتماعية الأخرى. سوسيولوجية الأدب مجالٌ جديدٌ وخضّب من حقول الدراسات الأدبية التي حظيت باهتمام الباحثين والناقدين. هذا الحقل يربط البنى الشعرية بالوضع الاجتماعي والسياسي للعصر المعاش. «ويعني هذا أنّ الأدب يعكس المجتمع، أو هو بمثابة مؤسسة مجتمعية كباقي المؤسسات الأخرى التي لها دور هام داخل النسق الاجتماعي ومن ثم فالأدب له تأثير كبير في المجتمع، كما للمجتمع تأثيره الخاص في الأدب. إذاً هناك تأثير وتأثر متبادلة» (حمداوي، ٢٠١٥م: ٤). و«في الحقيقة إنّ سوسيولوجية الأدب هي دراسة علمية لفحوى الأثر الأدبي وجوهره في علاقته بجوانب الحياة الاجتماعية الأخرى» (ستوده، ١٣٧٨ش: ٥٦).

هذا ولا يمكن أن نتصوّر بأنّ النصوص الأدبية كلها تعبّر عن واقع المجتمع، وترسم صورة طبق الأصل، بل إنّها تربط بعض القضايا الاجتماعية بالقضايا الأدبية. وفي هذا السياق وجدنا نتاج نازك الملائكة وبروين اعتصامي اللتين تمثّلان الأدبين العربي والفارسي خير تمثيل يعكس القضايا الاجتماعية والظروف السائدة في بيئتهما، فتركيز الشاعرتين على مفهوم الأنسنة والإحتفاء به يعود إلى حدّ كبير إلى التآثرات الاجتماعية ومتطلّبات العصر.

السيرة الذاتية والمسار الأدبي للشاعرتين

نازك الملائكة

رأت نازك الملائكة النور عام ١٩٢٢ في بغداد في أسرة مثقفة، كانت أمها شاعرة ووالدها كاتب شهير. (نازك الملائكة، ١٩٨٨م: ٥) أكملت دراستها الثانوية، ودخلت دار المعلمين العالية، وقد تخرّجت عام ١٩٤٤م ثم توجّهت إلى الولايات المتحدة الأمريكية لتكمل دراستها في فرع اللغة الانكليزية وأدائها.

لديها مجموعات شعرية كثيرة وأيضاً لديها دراسات في نقد الأدب. اتّخذت نازك الملائكة الأدب ساحة للتعبير عما يجري في المجتمع من حقائق. وقد جاءت أشعارها مزيج من القضايا ذات الصلة بالمجتمع. جدير بالذكر أنّ أشعارها في بادئ الأمر كانت باللغة الدارجة؛ يتّسم شعرها بالأحاسيس الجياشة والآلام الشديدة. «هذا وتتّسم نظرة نازك الملائكة بالطابع الفلسفي غالباً، فقد تأثرت بالكثير من كبار فلاسفة الغرب» (النشاي، ١٩٨٤م: ٥١٣)؛ وكانت من الشعراء الذين ينعمون النظر في ما يحدث في المجتمع، فهي شاعرة ذات رساليّة سامية تندّد عبرها بالأوضاع السياسية والاجتماعية المتوترة.

بروين اعتصامي

ولدت بروين اعتصامي عام ١٢٨٥ للهجرة الشمسية في مدينة تبريز. إنّها خاضت تجربة غير ناجحة في الحياة الزوجية لفترة قصيرة. (جاوش اكبري، ١٣٧٨ش: ١٩) حياتها كزواجها كانت قصيرة فقد استمرت خمسة وثلاثين عاماً فقط. (نميني، ١٣٦٢ش: ٢٠٢) بدأت أشعارها عندما كانت في السابعة من عمرها. وفي خرداد عام ١٣٠٢ش تحدّثت في احتفال تخرّج الطلاب، عن الوضع الاجتماعي المتردي، وتفشّي الأمية والجهل بين النساء الإيرانيات؛ ويحتل خطابها هذا أهمية كبرى بصفته بياناً في مجال حقوق المرأة في تاريخ إيران.

إنّ أشعار بروين في الجانب الفكري أشعار ناضجة مكتملة وتحمل في طياته الكثير من المعاني، كأنّ مفكراً قديراً قد كتب نتاج تأملّه وأفكاره حول الإنسان ومختلف جوانب الحياة، والقضايا الأخلاقية والاجتماعية، فـ «إنّ مواطنها الإنسانية ودعم الشعوب المحرومة واليتامى والمظلومين قد برزت في ردود فعل جياشة ومرهفة، وانبتقت من نفسها» (يوسف، ١٣٧٦ش: ٤١٤-٤١٥).

عرض الموضوع

أثر الظروف السياسية والاجتماعية في تكوين ظاهرة الأنسنة في شعر الشاعرتين لما كان الشاعر أو الكاتب يتأثر بما يحدث في عصره بمختلف الدرجات، فإن أفكاره تُعد انعكاساً لمجموعة العناصر التي تخلق تلك الظروف ونظراً إلى أهمية الظروف الاجتماعية والسياسية في تبني الشاعرتين للأنسنة في أشعارهما، فمن الضروري إلقاء نظرة ولو عابرة على الأوضاع السياسية والاجتماعية في عصرهما.

تأثرت نازك الملائكة بالأجواء السياسية السائدة في العراق آنذاك، على غرار مجاليلها من الشعراء والأدباء؛ فبعد انتصار ثورة عبد الكريم دخلت نازك الملائكة في التيارات السياسية، لكنّها اضطرت إلى مغادرة العراق بعدما غير عبد الكريم سياسته، إضافة إلى ممارسة السلطة الضغوطات عليها، فسكنت بيروت عامين ثم توجهت إلى الكويت لكنّها غادرت الكويت بعد الغزو العراقي عام ١٩٩٠م واتّجهت إلى مصر. فالظروف السياسية والاجتماعية في العراق كانت ساحة مليئة بالمشاكل والعراقلات لشعبٍ صارع المشاكل بعد الحرب العالمية الثانية، وفي هذا الطريق تحمل الكثير من المشاكل والمعاناة والتخلفات. فقد عانى الشعب العراقي من أنواع الهموم والمصائب التي تضرب بجذورها في قضايا عدّة منها الحرب الكونية الثانية، والفجوة الطبقيّة، وتجاهل حقوق المرأة، واستعمار العراق على يد بريطانيا، والسخط الشعبي وانتشار الأوبئة. إن قصيدة الكويليرا والحرب العالمية الثانية تعبّران عن اهتمام نازك الملائكة بقضايا المجتمع، إذ ترسم آلام الشعب في قصيدة الحرب العالمية الثانية:

يا قصوراً بالأمس كانت هنا يضح	حك من حولها ندىً واخضراراً
أصبحت مسكن الخراب وجفت	في حماها العطور والأزهار
أسفاً يا قصور أهلك ناموا	فوق صدر الثرى عراة الصدور
رقدوا حاسري العظام فلا قب	ر لهم في التراب أو في الشعور

(نازك الملائكة، ١٩٨٦م، ج: ١، ٣٧٧-٣٧٨)

فهذه الأبيات تعبّر بصدق وإخلاص عن هموم الشاعرة واهتمامها بمصير الشعب، فتدب القصور التي أصبح مسكن الخراب والدمار بعدما كانت عامرة بأهلها وسكانها. لقد تأثرت نازك بالأجواء السائدة على المجتمع نتيجة الحرب الكونية الثانية، فرسمت التأثير المدمر للحرب على حياة الناس، واتّخذت لفظة "القصور" رمزاً وشاهداً على هذه الأحداث والكوارث للإنسانية.

وبروين اعتصامي أيضاً عاشرت أحداث سياسية واجتماعية مهمة ظهرت في إيران؛ فإنّها وُلدت في عام إرساء الثورة الدستورية التي تولّى بعدها محمد علي شاه زمام أمور البلاد. ومن أهمّ الأحداث في هذه الفترة هي قصف البرلمان ومقتل عدد من المطالبين بالحرية. بدأت الحرب الكونية الأولى عام ١٩١٤م فتدهورت الأوضاع السياسية في إيران، وبعدما اعتلى احمد شاه عرش الحكومة أصبحت الأوضاع السياسية والاقتصادية في إيران أكثر تازماً، فالفقر ومشاكل الحياة زادت من مآسي الشعب، وقد قُضي على الأصوات المحتجّة والمطالبة بحقوق الشعب. بعدها بدأ رضا خان بمزاولة الحكم فلم تتحسن الأوضاع، فأخذ الأوضاع في التدهور يوماً بعد يوم؛ وبروين عندما شاهدت بأعينها الفقر والمعاناة والفساد الإقتصادي المتفشّي أنشدت قائلة:

روزى گذشت پادشاهی بر گذرگهی	فرياد شوق بر سر هر كوى وبام برخاست
پرسيد زان ميانه يكى كودك يتيم	كاين تابناك چيست كه بر تاج پادشاست
نزدك رفت پيرزنى گوژپشت وگفت	اين اشك ديده من وخون دل شماست

(اعتصامي، ١٣٧٥ش: ٢٧)

ترجمة: (مر ملك يوماً ما في طريق، فارتفعت أصوات الشغف من كل حي/ سأل من بين الأوساط طفلٌ يتيمٌ: ما هذه الجوهرة في تاج الملك/ اقتربت له عجوزٌ حدباء وقالت: إنّها دموع عينيّ ودمّ قلبك).

هذه الأشعار تبين لنا طبقتين مختلفتين كانتا تعيشان في عصر بروين. الطبقة المرفهة والثرية التي يأتي على رأسها الملك، والطبقة الأخرى التي ينتمي إليها الرعية واليتيم. توضّح بروين بشكل جيد في هذه الأبيات بأنّ هناك علاقة وطيدة بين ثروة الملك وفقر الرعية، والفقر ودموع اليتيم تُعد نتيجة ظلم الحكام وتغطرسه.

في ظل تلك الأوضاع المتدهورة أنشدت بروين أشعارها متأثرة بهذه الأوضاع الاجتماعيّة المخيمّة على كل طبقات الشعب. فأصبح من أجلّ هواجس بروين هو الفقر الثقالي، والجمود الفكري، والإنحطاط الأخلاقي بين الشعب في عصرها، فتعرّضت إلى مناهضة هذه الظواهر المزرية وجاهدت بلغة الشعر في سبيل دحرها. فمن هذا المنطلق تأثرت بروين اعتصامي ونازك الملائكة بالظروف المتدهورة السائدة في المجتمعين وبسبب الطبيعة النسائية جعلتا الإنسان وكرامته محوراً لأشعارهما.

الموضوعات الإنسانية المشتركة في أشعار نازك الملائكة وبروين اعتصامي النظرة الإنسانية إلى المرأة

إنّ النظرة الإنسانية واهتمام الشاعرتين بما تعاني منه المرأة في تلك الفترة الزمنية ليس بمستغرب. فإنّ القوانين غير المتساوية بين المرأة والرجل، وحرمانها من التعليم، والقيود الإجتماعية، والعنف والزواج الإجباري تعدّ من القضايا التي أثارت مشاعر الشاعرتين. فالمرأة «طول التاريخ كانت تتألم بالتمييز الجنسي وتعتبر هامشية ودونية بالنسبة إلى الرجل، واستمرت هذه النظرة السلبية إليها، حيث المرأة نفسها اعتقدت بدونيتها؛ لذلك ظهرت تيارات قد دعت إلى رفع وعي المرأة بالنسبة إلى مكانتها وإلى المحاولة لاكتساب تلك المكانة. قد تجلّى هذا النوع من النظرة في ساحة الأدب أيضاً وانعكست في الأشعار» (خزعلي وأونق، ١٤٣٦هـ: ٤٠٩).

عبّرت نازك الملائكة من خلال رسمها لصورة المرأة المتساوية في العراق، وبروين من خلال الحديث عن أوضاع المرأة في نهاية العهد القاجاري وبداية العهد البهلوي، عن رؤيتهما الإنسانية تجاه المرأة بأفضل الأشكال. وفي هذا المجال أكّدت الشاعرتان على قضايا كمساواة حقوق المرأة والرجل، والوقوف في وجه تقاليد المجتمع الأبوي والإهتمام بالعلم بصفته أهمّ عنصر في تطوّر المرأة وتقديمها.

نازك الملائكة تتطرّق إلى المرأة وحقوقها المشروعة من عدّة جوانب. على سبيل المثال هي ترسم ملامح قصة فتاة راحت ضحية عنف المجتمع ومعتقداته الخاطئة؛ فقُتلت لمجرد شكوك الرجال والخوف من إلحاق العار بهم. فهكذا تصوّر نازك هذا الظلم وانتهاك الحرمات والعنجهيات التي أناخت على المجتمع العراقي طويلاً، فحرمت المرأة حتى من اختيار الزوج المناسب والكفو لها، وإذا ما خالفت قرارات العشيرة أو أرادت أن تبني علاقات شرعية سوف تنال أشدّ العقوبات:

«أمّاه» وحشّرجةٌ ودموعٌ وسَوادُ	وانبجسَ الدمُ واختلجَ الجسمُ المطعونُ
والشعرُ المتموجُ عشّش فيه الطين	«أمّاه» ولم يسمّعها إلا الجلّاد
وغداً سيجيء الفجر وتصحو الأورادُ	والعشرون تُنادي والأملُ المفتونُ

(خزعلي وأونق، ١٤٣٦هـ: ٣٥١-٣٥٢)

فهذه الأبيات تشي بواقع مزرّي وتخلف اجتماعي تجاه المرأة. وتأثير هذا الأعمال اللإنسانية واضح على القرويات، بنات ونساء؛ فخوفاً من هذا العمل البربري والتعسف

القبلي، يقمعن كل المظاهر الجسدية والروحية التي أنعم الله بها على جنس النساء؛ فالبنات في المجتمع لا حول لهن ولا قوة، وهنَّ بعيدات كل البعد عن الأفراح؛ يتحكم الأب والأخ لا بل حتى سائر أفراد القبيلة في أمورهنَّ، والحياة والموت أمرٌ يجري على أيديهم متي ما أرادوا ولو لم يرتكبن ذنباً محرماً. فعلى حد قول الشاعرة:

يا جارات الحارة، يا فتيات القرية	الخبزُ سنعجنهُ بدموع مآقينا
سنقصُّ جدائلنا وسنسلخُ أيدينا	لتظلُّ ثيابهم بيضَ اللون نقيّه
لا بسمه، لا فرحة، لا لفته فالمديه	ترقبُنَا في قبضة والدنا وأخينا
وغداً من يدري أيُّ قفار	ستؤارينا غسلاً للعار

(خزعلي وأونق، ١٤٣٦هـ: ٣٥٣-٢٥٤)

فهذه الأبيات تجسد لنا واقع المجتمع الأبوي الذي يستمد قانونه من القبليّة، فتبقى المرأة خائفة مترقبة لا يحق لها أن تتحكم بأمورها فهي في معرض الإتهام ترقبها عيون الأب والأخ في كل مكان، والسكين بأيديهما ليغسلا العار كما يزعمون. وفي قصيدة "النائمة في الشارع" إنَّها تتحدّث عن ألم مراهقة تصارع الفقر والمصائب، وتبكي جوعاً وفقراً؛ فتصف نازك في هذه القصيدة ليلة أمطار ورياح، يسودها الظلام، وفي تلك الأجواء تتحدّث عن بنت يحيط بها ألم الجوع والتشرّد، بنت لا تخاف من الظلام والعواصف، وهي غارقة في مشاكلها:

في الكرّادة، في ليلة أمطار ورياح	والظلمة سقفٌ مدّ وسترٌ يزاح
إنتصف الليل وملء الظلمة أمطاراً	وسكونٌ رطبٌ فيه الأعصارُ
في منعطف الشارع، في ركنٍ مقررٍ	حرسٌ ظلمته شرفة بيتٍ مهجورٍ
الإحدى عشرة ناطقة في خديها	في رقّة هيكلها وبراءة عينيها
رقدت فوق رخام الأرصفة الثلجيّه	تُعول حول كراها ریحٌ تشرينيّه
ضمت كفيها في جَزَعٍ في إعياءٍ	وتوسّدت الأرض الرطبة دون غطاءٍ
لا تغفوا لا تغفوا عن إعوالم الرعدِ	واحميّ تلهب هيكلها ويد السهد

(خزعلي وأونق، ١٤٣٦هـ: ٢٦٩-٢٧١)

فكأني بنازك تحمل المجتمع مسؤوليّة هذه البنت البريئة التي راحت ضحيّة العادات والتقاليد الخاطئة. وتخجل لكونها إنسانة فتثور ثورة غضب واندفاع، فليس هناك من يولي اهتماماً بالأم المظلومين والفقراء، وتعدّ الإنسانية مفردة فقدت مفهومها ومعناها، والعطوفة قضية قد ابتعدت عن الإنسان، وبقيت مجرد لفظ في القاموس:

ولمن تشكو؟ لا أحدٌ ينصتُ أو يُعنى
والناس قناعٌ مصطنعُ اللونِ كذوبٌ
والمجتمع البشري صريعُ رؤى وكؤوس
ونيامٌ في الشارع ييقونُ بلا مأوى
هذا الظلمُ المتوحشُ باسمِ المدنيَّة
البشريَّة لفظاً لا يسكنه معنى
خلفَ وداعتهِ اختبأ الحقد المشوبُ
والرحمة تبقى لفظاً يقرأ في القاموس
لا حمى تشفعُ عند الناس ولا شكوى
باسم الإحساسِ، فواخجلِ الإنسانيَّة
(خزعلي وأونق، ١٤٣٦هـ: ٢٧٢)

فهذه الصرخة تبقى تطالب المجتمع باحترام حقوق الإنسانية وكرامتها، وتركز نازك في مطالبتها على المرأة باعتبارها الضحية الأولى في المجتمع. هذا وأن الاهتمام بالمرأة وحقوقها يشكل أيضاً إحدى القضايا الأخلاقية المهمة عند بروين اعتصامي، فإنها أولت اهتماماً بالغاً بحرمان المرأة من حقوقها الإجتماعية، وركّزت على هذا الأمر. وتوصي النساء بالعلم ومتابعة الدراسة كي لا تُهمش في المجتمع وبذلك تنال حقوقها وكرامتها وعزّته.

تحدّثت بروين في خرداد عام ١٣٠٣ للهجرة الشمسية في خطاب لها بعنوان "المرأة والتاريخ" في ذكرى تخريجها عن ظلم مؤرس طوال قرون على المرأة شرقاً وغرباً، وأنشدت قصيدتها المعنونة ببذور الأمل، (مرادي وسميع زاده، ١٣٩٢ش: ١٣) وممّا جاء في هذه القصيدة:

بستي نسوان ایران جمله از بی دانشی است
به که هر دختر بداند قدر علم آموختن
از چه نسوان از حقوق خویشتن بی بهره اند
دامن مادر، نخست آموزگار کودک است
مرد یا زن برتری ورتبت از دانستن است
تا نگوید کس پسر هشیار ودختر کودن است
نام این قوم از چه دور افتاده از هر دفتری
طفل دانشور کجا پرورده نادان مادری
(اعتصامي، ١٣٧٥ش: ٢٩٤-٢٩٥)

ترجمة: (إن تخلف نساء إيران، ناجم عن الأمية؛ فإن تفوق الرجل أو المرأة ينجم عن العلم / يجب أن تتلقى كل بنت التعليم؛ كي لا يقال إن الولد ذكي والبنت غبية؛ / لماذا الكثير من النساء محرومات من حقوقهن؛ لماذا لا تذكر هذه الشريحة في أي كت / إن حضن الأم هو أول معلم للطفل؛ كيف يصبح الطفل متعلماً وهو في أحضان أم غير متعلّمة).

فالشاعرة هنا تطالب الشعب بحق النساء الإيرانيات في مجال التعليم والدراسة، وتحث النساء على اكتساب العلم لكي لا تبقى متخلفة ترضع الأطفال جهلاً وتخلفاً، فعزة الإنسان وتفوقه مرهونة بعلمه ومعرفته؛ كما تحذّر بروين، النساء من السقوط في شرك الفساد وتحدّث عن العوامل التي تسبب ذلة المرأة. إن أكثر تلك العوامل إيلاماً هي المحاكاة

والاهتمام بالمال والشهوات. إنَّها تعتبر العلم والمعرفة أفضل ما يمكن للمرأة أن تتزيَّن به، فتشجعها على السير نحو الكمال والفضيلة. وترى بأنَّ المرأة التي لا تتلقَّى العلم تجعل عمرها يذهب أدراج الرياح، فتدعو المرأة كراراً ومراراً إلى التعلُّم، وتؤكد بأنَّ السبيل الوحيد، لخلاص المرأة من وضعها المتدهور هو تحصيل العلم:

زني كه گوهر تعليم و تربيت نخريد	فروخت گوهر عمر عزيز را ارزان
چه حله اي است گراتر ز حليت دانش	چه ديه ايست نكوتر ز ديه عرفان
نه بانوست كه خود را بزرگ مي شمرد	به گوشواره و طوق وبه ياره مرجان
براي گردن و دست زن نكو پروين	سزاست گوهر دانش نه گوهر الوان

(اعتصامي، ١٣٧٥ش: ١٨٢-١٨٣)

ترجمة: (إنَّ المرأة التي لم تشتتر التعليم والتربية، تبيع جوهر عمرها بثمن بخس/ هل هناك زينة أغلى من العلم وهل هناك لباس أجمل من المعرفة/ ليس امرأة من تعتبر نفسها كبيرة بالقرط والقلادة والمرجان/ الأفضل لأيدي المرأة وعنقها يا بروين، جوهر العلم وليس جوهر الألوان).

كانت المرأة محرومة في عصر بروين من أدنى حقوقها الإنسانية، فاستمرارية هذه الحالة جعلت البعض يعتقد بتفوق الرجل على المرأة؛ فلهذا ترى بروين أنَّ تساوي الحقوق بين المرأة والرجل يُعدُّ الشرط الرئيسي لتحقيق تطوُّر المرأة وتقدِّمها؛ وإنَّها تعدُّ المرأة ركناً جوهرياً لا غنى عنه في إنشاء البيت، ودون هذا الركن الجوهري لا تكتب الديمومة لأي بيت، وترى أنَّ وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة فتؤكد على أنَّ المرأة والرجل يكملان البعض:

اگر فلاطن و سقراط بوده اند بزرگ	بزرگ بوده پرستار خردي ايشان
وظيفه زن و مرد اي حكيم داني چيست	يكيست كشي وآن ديگريست كشتيان

(اعتصامي، ١٣٧٥ش: ١٨١)

ترجمة: (فلو كان أفلاطون وسقراط كباراً فقد تربياً في أحضان امرأة/ هل تعرف واجب المرأة والرجل يا حكيم، فواحد سفينة والآخر ربان).

فبروين في هذين البيتين ترى أنَّ الإنطلاقة الأولى للعلماء هي المرأة/ الأم التي تربوا في أحضانها، فلا يمكن للرجل أن يتقدَّم دون دعم المرأة وعنايتها، «فكل العظماء في التاريخ تربوا في أحضان امرأة، وبعد هذا قد اجتازوا مراحل التطور والعظمة» (محمدي، ١٣٨٧ش: ٩).

في هذه الأبيات تبين أن الشاعرتين يذهبان إلى أن الاجتماع هو المسؤول عن تخلف النساء مع أن نازك تؤكد على القيود الاجتماعية والقبلية التي تفرض أفكارها الجائرة على المرأة، ترى بروين أن الجهل وعدم المساواة بين المرأة والرجل هو السبب في تخلف المرأة.

نبد البطريكية

البطريكية كلمة يونانية، ترجمتها الحرفية "الأب الرئيس" وتطلق على السلطة الأبوية في المجتمع؛ فهذا المصطلح يدل على النظام الذي يفرض الأب/ الرجل سلطته على الأسرة وبالتالي على المجتمع، ولذلك فإن النظام المعتمد على السلطة الأبوية يُدعي "النظام البطريركي"، «إذ يستخدم هذا المصطلح لوصف السيطرة الذكورية على المجتمعات الإنسانية والتي كانت مصدراً للكبت المفروض على الأنثى؛ حيث أبوية النظام لا تسمح للمرأة أن تتجاوز موقعها الثانوي أو الأدنى» (البازغي، ٢٠٠٥م: ٦٣).

وهذه العقلية المتخلفة التي ترى أحقية الرجل وأرجحيته على المرأة كانت شائعة آنذاك، وهي فكرة مدمرة ومقيدة لا يتقبلها الفكر الحديث؛ فلهذا انبرى لنبذها ودحرها عدد من الشعراء وعلى رأسهم الشاعرات التي اكتوت بنيران هذه الأفكار. والشاعرة العراقية نازك الملائكة من خلال تعرضها لهذه الأفكار، وتدميرها أسوار التقاليد العربية البالية شكلاً ومعنىً، وتحطيم قواعد الشعر المألوفة أدت إلى إحداث تغيير في مجتمع العراق الأبوي. تحدثت نازك الملائكة في قصيدة "مرثية امرأة لا قيمة لها" عن موت امرأة لم تلق اهتماماً ولا يروي أحد قصة موتها في مجتمع رجولي بإمتياز. في هذه القصيدة إنها رسمت مكانة المرأة المتدهورة وعدم اهتمام المجتمع الذكوري بها، فتحدثت عن امرأة لم يثير موتها غضب أحد ولم يحرك مشاعر أي ضمير:

ذهبت ولم يشجب لها خدٌ ولم ترجف شفاه	لم تسمع الأبواب قصة موتها تروى وتروى
لم ترتفع أستار نافذة تسيل أسى وشجوا	لتتابع التابوت بالتحديق حتى لا تراه
إلا بقية هيكلي في الدرب ترعشه الذكر	نبأ تعثر في الدروب فلم يجد مأوى صده

(نازك الملائكة، ١٩٨٦م، ج٢: ٢٧٣)

فنازك كانت تحمل هموم المرأة وضياعها وسط المجتمع الذكوري، فحاولت تغيير الأجواء وتلطيفها، وإعادة حقوق المرأة الضائعة؛ فتعرضت بسلاح الشعر إلى المجتمع الذي هضم المرأة وكسر شوكتها فنارت ثورة محمودة أعادة للمرأة دورها وكرامتها.

وفي زمن الشاعرة بروين اعتصامي كانت مدارس خاصة بالأولاد، وكانت قلّة من البنات وبرعاية الآباء المثقفين يتلقين التعليم في البيوت. فلا يسمح للمرأة آنذاك بالمشاركة في الأنشطة الاجتماعية، ولا دور لها سوى تلبية غرائز الرجال وتوفير مستلزمات الراحة في البيوت. ولهذا نرى بعد إصدار ديوان بروين ونشره، شكك الكثير من الأدباء بصحة إنتسابه لهذه المرأة فظنّوا أنّه من إنشاد رجل، وهذا ما يدلّ على عدم الثقة بالمرأة ومقدرتها كما كان سائداً على أفكار الناس وعقليتهم. فجابته بروين هذه الأفكار، وقرنت المرأة بالرجال في الكمال:

به هيچ مبحث وديباچه اي قضا ننوشت براي مرد كمال وبراى زن نقصان
زن از نخست بود ركن خانه هستي كه ساخت خانه بي پاى بست وبي بستان

(اعتصامي، ١٣٧٥ش: ١٨٣)

ترجمة: (لا قضية ولا كتاب يقضي أنّ الكمال للرجل والنقصان للمرأة / كانت المرأة من البداية أساس الكون، فصنعت بيتاً دون ركيزة وقائدة).

كانت بروين من خلال نتاجها الشعري لا تفضّل المرأة على الرجل ولا الرجل على المرأة، وتحارب هيمنة الرجل على المجتمع وتنادي بتساوي حقوق الجنسين في المجتمع، فلكلّ منهما كمالات ونقصان.

وجهت كلّ من الشاعرتين نقدهما إلى المجتمع الرجولي، فوجّهت نازك في قصيدة "مرثية امرأة لا قيمة لها" انتقادها إلى تدنّي مكانة المرأة، أمّا بروين فاستخدمت مفردتين لتعبّر عن احتجاجها على المجتمع الأبوي وهما متناقضان: الكمال والنقص، لتحتجّ على التفرقة بين الرجل والمرأة.

الوقوف بوجه الظلم والاستبداد

لقد عاشت نازك الملائكة في فترة كان يسودها القتل والدمار وخاصة في خضم الحرب الكونية الثانية؛ ففي ظل هذه الظروف القاسية، كوارث الحرب، والأوضاع السياسية المتدهورة، والاستبداد العالمي جعلت الشاعرة تشعر بالألم بكلّ كيانها؛ فمثل هذه الأحداث الحربية المهيبة أثارت مشاعرها، وكوّنت لديها هذه الهواجس الإنسانية والدفاع عن كرامة الإنسان في مواجهة الظلم والاستبداد. إنّها تحدّثت عن مشاكل الحرب، ومقتل الناس الأبرياء على يد المستبدّين، ودعت القتلة والمتاجرين بالحرب إلى السلام:

أيها السادرونَ في ظلمة الأر ض كفاكم شقاوةً وذهولا

واهتفوا حولها بأنشودة السل — م ليهنّا في القبر كلّ حزين
 فيم هذا الصراع يا أيها الاح — ياء؟ فيم القتال؟ فيم الدماء؟
 فيم راح الشبان في زهرة العم — ر ضحايا وفيم هذا العدا؟
 (نازك الملائكة، ١٩٨٦م، ج: ١: ٥٤-٥٥)

فهذه الأبيات تعطي لنا فكرة عن هواجس هذه الشاعرة وانتماءها للأنسنة، وإلحاحها على الأسئلة يدل على توترها وحماسها الشديد في مواجهة هذه القضايا المدمرة التي لا ترى مبرراً لها. وفي ما يلي وظفت حادثة مقتل هايبيل على يد أخيه قابيل، وبهذا أرادت أن تعبّر عن استمرارية الظلم والاستبداد كواقعة تاريخية؛ وكأنّها تريد أن تقول أن الظلم واقعٌ ومستمرٌّ وأزلي، والخير والشر يعيشان في صراع سرمدى:

أو لم تسمع الحقولُ صدى صر — خة هايبيل حين خرّ قتيلاً؟
 أو لم يشهد القطيع على الجا — ني؟ ألم يبصر الدم المطلقولاً؟
 ليس إلا قابيل يمشي كئيباً — وهو نهب الأفكار والأوجاع
 (نازك الملائكة، ١٩٨٦م، ج: ١: ٤٠-٤١)

لم تحصر نازك الملائكة محاربة الاستبداد في إطار المجتمع العراقي فحسب، بل إنّها كانت تولي إهتماماً بالغاً في الدفاع عن القضية الفلسطينية ومحاربة الظلم الممارس على هذا الشعب، ومناصرة بعض الشخصيات السياسية صاحبة الشعبية. فقد أنشدت قصيدة بمناسبة القاء القبض على عبد السلام عارف عام ١٩٨٥م وإيداعه السجن بتهمة المؤامرة، فتقرّ أنّ هذا الرجل السياسي البارز لم يرتكب أية خطيئة وكان محبباً للعروبة، يحارب الظلم وينصر الحق وكثيراً من الناس كانوا يحبونه بإخلاص.

ولماذا سنسجنه؟ يسأل الرافدان — أيّ ذنب جناه
 هل تقول لها إنه يا شواطئ كان — عربي الشفاء؟
 والملايين تحمل في يدها ورده — لك عبد السلام
 يا نصير العروبة والحق والوحده — يا عدو الظلام
 (نازك الملائكة، ١٩٨٦، ج: ٢: ٤٧٦)

إنّها وفي قصيدة "مأساة الأطفال" تحدّثت عن ظلم الحكام وتأثيره على الأطفال بلغة واضحة وشفافة، وكأنّها تريد أن تكشف النقاب عن عمق كارثة الاستبداد في مجتمعاتها، وتحذّر من دموع الأطفال، فتذكّر الحكام أنّ دموع المظلومين خاصة الأطفال منهم تجرح:

ودموعُ الأطفالِ تجرُحُ لكن ليس منها بدُّ فيا للشقاء
ليس فيه شرٌّ وظُّلمٌ وتعذيبٌ بٌ ولا فيه مولدٌ ومماتٌ
ليس فيه هذا النزاعُ على الخبِ زِ ولا في صفائه لامأساةُ

(نازك الملائكة، ١٩٨٦م، ج: ١، ٢٠١-٢٠٤)

من هنا يمكن القول أن قضية الإنسان والهموم الجماعية في عصرها قد شكّلت جزءاً مهماً من ثيمات شعر نازك الملائكة، فإنّها رسمت تلك الأحداث بنظرة إنتقادية وبشكل ملموس وواضح.

أمّا بروين اعتصامي فقد عاشت في ظل ظروف، كان الظلم والاستبداد قد برزا في الساحة في أسوأ الأشكال؛ «عاشت بروين ظلم الحكام بكل وجودها؛ والظلم الكبير الذي مارسه الملوك في مختلف الفترات هو أنّهم قد هيمنوا على الثروة القومية وزادوا من ثرواتهم» (جاوش اكبري، ١٣٧٨ش: ٧٣-٧٤). كانت تنظر بروين إلى الظالمين بنظرة كرهٍ وكانت تشفق على المظلومين والبؤساء الذين داسهم الظلم تحت أقدامه؛ إنّها بالرغم من امتلاكها قلبٍ حنونٍ لكنّها كانت ساخطة ممّا كان يمارسه الاستبداد على الناس بإسم القانون.

لقد عبّرت بروين عن آلام الناس في نتاجها الشعري أحسن تعبير، وجعلت نفسها ملزمة بالدفاع عن المظلومين والكادحين:

روز شكار پيرزني با قباد گفت كز آتش فساد تو جز دود آه نيست
روزي بيا به كلبه ما از ره شكار تحقيق حال گوشه نشينان گناه نيست
دزدم لحاف برد وشبان گاو پس نداد ديگر به کشور تو امان وپناه نيست
صد جور ديدم از سگ ودربان به درگهت جز سفله وبخيل در اين بارگاه نيست
ويرانه شد ز ظلم تو هر مسكن ودهي يغماگر است چون تو كسي پادشاه نيست

(اعتصامي، ١٣٧٥ش: ١٤٧-١٤٨)

ترجمة: (قالت عجوزة لقباد وهو في رحلة صيد، لا نرى إلّا الدخان من نار فسادك/ تعال يوماً إلى كوخنا في طريقك للصيد، فإنّ تفقد أحوال الفقراء ليس بذنب/ سرق اللص بطّانيتي ولم يعيد الراعي بقرتي، فلم يعد في بلادك أمان ولا ملجأ/ تعرّضت للكثير من الظلم من كلاب وحرّاس بلاطك، فليس في بلاطك إلّا من الرذل والبخيل/ تدمّرت كل البيوت والقرى من ظلمك، فلا يوجد ملك ظالم مثلك).

فقد تحدّث بروين عن لسان عجوزٍ بلغةٍ جريئةٍ، وبيّنت للملك ظلمه وتعسّفه وبطشه، فأخذت تطالب بحقوق الفقراء والمساكين من أهل البلد. والملك رمزٌ للظلم والاستبداد عند بروين. وفي الشاهد التالي تكشف بروين النقاب عن حقيقة الملك ومن حوله، واشتغالهم بالأموال، فقد سلبوا ممتلكات الشعب وثوراتهم، وأخذوا يمارسون الضغط المالي على طبقات المجتمع بما فيهم الفقراء والمعوزين:

روزى گذشت پادشهي از گذرگهي	فرياد شوق بر سر هر كوي وبام خاست
پرسيد زان ميانه يكى كودك يتيم	كاين تابناك چيست كه بر تاج پادشاست
نزديك رفت پيرزنى گوژپشت وگفت	اين اشك ديده من وخون دل شماست

(اعتصامي، ١٣٧٥ش: ٢٧)

ترجمة: (مر ملك يوماً ما في طريق، فارتفعت أصوات الشغف من كل حي/ سأل من بين الأوساط طفلٌ يتيمٌ: ما هذه الجوهرة في تاج الملك/ اقتربت له عجوزٌ حدباء وقالت: إنّها دموع عيني ودم قلبك).

لم تكتف بروين بهذا الحد، فكانت تشجّع مظلومي المجتمع إلى الثورة والحصول على حقوقهم، إنّها كانت تدعو الناس المظلومين إلى محاربة الظلم والبطش، وتعد انتشار الفساد نتيجة للظلم والتمييز الذي يمارسه حكّام المجتمع:

يتم پيرزن اينقدر خون دل نخورند	اگر به خانه غارتگری فتد شررى
به حكم ناحق هر سفله خلق را نکشد	اگر ز قتل پدر پرسشى کند پسرى
درخت جور وستم هيچ برگ وبار نداشت	اگر كه دست مجازات ميزدش تبرى

(اعتصامي، ١٣٧٥ش: ٢٦٨)

ترجمة: (لم يتألم اليتيم والعجوز، لو أصاب بيت اللص شرراً/ ولم يقتل الأرذال بحكمهم الجائر أبناء الشعب، لو سأل طفلٌ عن سبب قتل والده/ لم تؤرق ولم تثمر شجرة الظلم، لو أنّها ضربت بفأس العقوبة).

فمن هذا المنطلق أنّ بروين لم تناضل وتناهض الظلم في شعرها فحسب، بل أنّها كانت تطالب الشعب بالثورة والوقوف في وجه عوامل الظلم والاستبداد، وتدعو المضطهدين إلى التصدي والوقوف بوجه الحكام من أجل نيل حقوقهم المشروعة؛ فهي كانت تطالب بالإنسانية وكرامتها على شتى الأصعدة.

تتحدّث نازك عن الظلم والإضطهاد المسيطر على المجتمع العراقي وتستشهد بالأطفال والنساء وكل طبقات المجتمع وفي بعض نصوصها هي تتجاوز الحدود العراقية وتتحدّث عن الظلم الواقع على الشعب الفلسطيني؛ لكن بروين تنطرق إلى ظلم الملك والحاكم وهي تدعو الناس إلى الثورة على الظلم، وقد جاء دفاعها عن المظلومين والمضطهدين واحتجاجها كان في داخل الحدود الإيرانية.

الفقر والفجوة الطبقيّة

إنّ قضية الفقر والفجوة الطبقيّة بين الفقير والغني تشكّل إحدى أهمّ القضايا الحسّاسة في نتاج الشاعرتين. نازك الملائكة استوعبت مشاكل الناس والمجتمع جيّداً، فكان هاجسها الرئيسي هو الاهتمام بالمحرومين والفقراء؛ إنّها ترسم في شعرها معاناة المظلومين والمضطهدين وظروف حياتهم المعيشيّة. وقد عبّرت عن الفجوات الطبقيّة والتمييز العنصري بإحساس مرهف، ورسمت مشاكل الناس بلغة بسيطة؛ إنّها تتحدّث في شعرها عن الفقر ومعاناة الشعب، وترسم في صور بسيطة الظلم الممارس والفضى المتفشية في المجتمع، في أجواء مفعمة بالحنن. «على هذا يمكن القول أنّ موقف نازك الملائكة تجاه مجتمعيها ومعاناته هو موقف من يشعر بثقل المسؤولية وهذا الأمر هو أهمّ سمة اجتماعية لأشعارها» (صدقي، ١٣٩٢ش: ٨٣)؛ تقول نازك:

كلّ فجرٍ أرى الرعاة يمرّو	نَ فأبكي على حياة الرعاة
فكنوز الغني يجمعها الفلّا	حُ في عمره الشقيّ الكسير
شهد الكوخُ أنّه يحمل الحز	نَ لتحظى القصورُ بالخيرات
ويموت الفلاحُ جوعاً ليفتر	لعيني ربّ القصورِ النعيم

(نازك الملائكة، ١٩٨٦، ج١: ١٥٨-١٦٠)

تبكي الشاعرة من التمييز الطبقي والتعسف في المجتمع، فالفلاحون والكادحون يشقون طول حياتهم ليحلبوا الراحة والنعيم لأصحاب القصور الفخمة. ترى نازك عظمة القصور ونعيمها ناجمة عن بؤس الفقراء وممارسة الظلم عليهم، فتحدّثهم من تداعيات سخط الفقراء:

إن يكن في قصورهم من سنا الأض	وإ ما يرجع الظلام ضياء
فنداً يخذ الضياء وتبقى	ظلمة الليل بكرة ومساء

(نازك الملائكة، ١٩٨٦، ج١: ٧٧)

كما تقول الشاعرة في قصيدة "بين قصور الأغنياء" أن الأغنياء تخلّصوا من الفقر وأخذوا يعيشون في الرخاء، لكنهم يعانون من الفقر الروحي والنفسي أو الجوع الروحي، كما قد بسطت الأحزان هيمنتها عليهم وكأن نازك تريد تذكيرهم بفقر الفقراء:

إن يكونوا نجوا من الجوع والفقر — ر ولم يفترسهم الحرمان
فلقد طالما أحسوا بجوع الـ — روح واسـتعبدهم الأـحزان

(نازك الملائكة، ١٩٨٦، ج: ١، ص: ٧٦)

لاشك أن الفقر الروحي يترك تأثيراً جسدياً وروحياً على مخيلتهم، ويجلب لهم الحزن والكآبة، فهم تخلّصوا من الفقر والمجاعة ليقعوا في فقرٍ أشدّ وأمضّ عليهم؛ وكأن نازك تلقي نظرة على هذا الأمر من منظار فلسفي.

كانت بروين اعتصامي شاعرة اليتامى والأرامل والمحرومين، فقد ركزت في شعرها على الدفاع عن هذه الشرائح المظلومة والبائسة؛ إنها تصنّف المجتمع في مجموعتين متناقضتين كما هو في أرض الواقع: المتمكّنين والبؤساء؛ فتقارن بين هذين الشريحتين بما يلي:

به خنده گفّت میان من و تو فرق بسی است — تویی ز دست شهی من ز پای کارگری
تو از فراغ دل و عشرت آمدی بوجود — من از خمیدن پستی و زحمت کمری
ترا به مطبخ شه پخته شد همیشه طعام — مرا به آتش آهی و آب چشم تری

(اعتصامي، ١٣٧٥ش: ٢٦٧)

ترجمة: (قال ضاحكاً: بيني وبينك فرق شاسع، انك من الملوك وأنا من العمال/ أنت ولدت في أحضان الرخاء والرفاهية، وأنا من رحم التعب والكدح/ إن طعامك يُطبخ في مطبخ الملوك دائماً وأنا يُطبخ بنيران الهموم والأحزان).

إنها كانت دائماً تدافع عن الفقراء، وتندب أحوالهم المزرية، وكانت بهذا تتحدّى الحكّام والملوك، وترى أن الفقر والتميز الطبقاتي ناجمان عن عدم اهتمام الملوك وممارستهم لظلم والاضطهاد:

سختی کشی ز دهر جو سختی دهی به خلق — در کيفر فلک، غلط و اشتباه نیست

(اعتصامي، ١٣٧٥ش: ١٤٨)

ترجمة: (ستعاني من الدهر كما كنت تظلم الشعب، فليس هناك خطأ في حساب الدهر).

فبروين تنذر الملوك بعاقبة ظلمهم وبطشهم، فالدهر لا يخطأ في حكمه وفي حسابه، وسوف يثأر من هؤلاء الملوك لصالح الفقراء. تناصر الشاعرة شريحة الفقراء في حرب الفقر والغنى، وتطرح نفسها كمحامية مخلصه ومحكمة للمظلومين؛ إنها كانت تعبر عن غضب الفقراء بلغة رمزية:

من بس غرسه خفتم وشبها مشام من بوى طعام خانه همسا يگان شنيد
تا بكي جان كندن اندر آفتاب اي رنجبر ريختن از بهر نان از چهره آب اي رنجبر
از حقوق پايمال خویش كن پرسشى چند ميترسى ز هر خان وجناب اي رنجبر

(اعتصامي، ١٣٧٥ش: ٢١-٢٢)

ترجمه: (نمت ليالي كثيرة وأنا أشم رائحة طعام جيراننا/ إلى متى تكدح تحت أشعة الشمس وإلى متى تتصبّب عرقاً يا كادح/ اسأل عن حقوقك المغتصبة لماذا تخاف من كلّ الأسياد والأرباب).

فقد وقفت بروين وقفه صارمة وحازمة إزاء هذا الظلم والفجوة الطبقيّة التي عانى منها الشعب طويلاً وضاق بها ذرعاً، فهي اتخذت الإنسانية غرضاً سامياً لشعرها؛ وقد تجلّت ملامح الأنسنة في معظم قصائدها.

إنّ الشاعرتين تحدثتا عن مدى تأثير الفقر والفجوة الطبقيّة على الشعب وذهبتا إلى أنّها تعدّ نتيجة لإهتمام الحكام لجمع الثروة وتهميش الفقراء.

النتائج

- لقد تجلّت مظاهر انسانيّة في شعر نازك الملائكة وبروين اعتصامي بكتافة ممّا تنمّ هذه المظاهر عن قواسم مشتركة في المجتمعين اللتين تنتميان لهما الشاعرتين. وقد جاءت نظرتهما للمجتمع نظرة تتسم بالمسؤوليّة.

- تتشابه الظروف الاجتماعيّة والسياسية والثقافية في المجتمعين تشابهاً كثيراً حيث جاءت فحوى أشعارهما قريبة من حيث الفكرة والرؤية؛ فقد ركزت على جوانب إنسانيّة تكاد تكون معدومة في كلا المجتمعين وأخذتا تطالب باستعادة هذه القيم الأخلاقيّة والإنسانيّة المتفشية في جسد المجتمع التقليدي.

- نظراً لبعض الفوارق الموجودة في المجتمعين، وفي الحياة الاجتماعية والشخصية عند الشاعرتين، ظهرت هناك إختلافات في الرؤى والقيمات.

- عبّرت الشاعرتان عن رؤيتهما الإنسانية تجاه المرأة وذلك من خلال تركيز نازك على صورة المرأة المساوية في العراق آنذاك، وتطرّق بروين إلى أوضاع المرأة المتدهورة في نهاية العهد القاجاري وبداية العهد البهلوي؛ وفي هذا المجال أكّدت الشاعرتان على قضايا كمساواة حقوق المرأة والرجل، والوقوف في وجه تقاليد المجتمع الأبوي والإهتمام بالعلم بصفته أهمّ عنصر في تطوّر المرأة وتقدّمها.

- جاءت أشعار نازك الملائكة نغمات متصاعدة من قلب متألم قد تجرّع المشاكل والآلام، لكننا لا نرى روح التمرد والطغيان فيها؛ أمّا مشاعر بروين وعواطفها ورؤيتها النسوية أكثر بروزاً وطغياناً، فنرى روح التمرد بوجه الحكّام واضحاً جلياً في شعرها.

- لقد أدّت أفكار نازك الملائكة الإصلاحية إلى إحداث تغييرات في المجتمع العراقي الأبوي من خلال تعرّضها إلى التقاليد العربية البالية وثورتها على قواعد الشعر المألوفة. وبروين أيضاً ممن خلال مشاركتها الاجتماعية ونشاطاتها الأدبية والثقافية جابهت الفكر البطريكي، وحاولت ترسيخ الثقة بالمرأة في المجتمع آنذاك.

- تلقي نازك الملائكة نظرة فلسفية متأنية على قضايا المجتمع العراقي آنذاك، وتركّز على قضايا ذات صلة بالحياة والكينونة، لكن بروين بلغة رمزية تتسم بالصراحة أحياناً، توجه النقد إلى المجتمع الأبوي الإيراني بحدة، وتقف بوجه تفرّس الرجال.

- قضايا المجتمع الإيراني بكل طبقاته تشكّل فحوى أشعار بروين، فهي تركّز على كل طبقات المجتمع الإيراني فحسب بدايةً من الملك والحاكم ومروراً بالقاضي والمحامي والفلاح وانتهاءً بالرجل والمرأة؛ بينما لا تكتفي نازك بمعالجة القضايا الإنسانية في بلدها فحسب، فتولي اهتماماً بالغاً بالدول العربية الأخرى، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية.

المصادر والمراجع

١. اركون، محمد (٢٠١٠م). الأنسنة والإسلام. بيروت: دار الطبيعة للطباعة والنشر.
٢. آرين پور، يحيى (١٣٨٢ش). از صبا تا نيماء. ج٢، ط٨، طهران: انتشارات زوآر.
٣. اعتصامي، پروين (١٣٧٥ش). ديوان پروين اعتصامي. ط٥، طهران: انتشارات ايران زمين.
٤. البارغي، سعد (٢٠٠٥م). شرفات للرؤية، العولمة والهوية والتفاعل الثقافى. بيروت: المركز الثقافى العربى.
٥. بيات، عبدالرسول (١٣٨٦ش). فرهنگ واژه‌ها. ط٣، قم: انتشارات انديشه وفرهنگ ديني.
٦. چاوش أكبري، رحيم (١٣٧٨ش). حكيم بانوي شعر فارسي: زندگي وشعر پروين اعتصامي. طهران: نشر ثالث.
٧. حسني، سيد علي (١٣٩٢ش). «نقد وبررسي اومانيسم جديد». مجلة معرفت فلسفي، قم: مؤسسه آموزشي وپژوهشي امام خميني، السنة ١٠، العدد ٣، صص ١١٥-١٤٤.
٨. حمداوي، جميل (٢٠١٥م). سوسولوجيا الأدب والنقد. مغرب: مكتبة المعارف.
٩. خزعلي، أنسية؛ سمية أونق (١٤٣٦هـ). «المرأة في روايات خولة القزويني (البيت الدافئ وسيدات وأنسات نموذجاً)». مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران، فرديس فارابي، السنة ١١، العدد ٣، صص ٤٠٩-٤٢٦).
١٠. ستوده، هدايت الله (١٣٧٨ش). جامعه شناسي در ادبيات فارسي. طهران: آواي نور.
١١. صانع پور، مريم (١٣٧٨ش). «مباني اومانيسم». مجلة قبسات، العدد ١٢، صص ١٠-١١.
١٢. صدقي، حامد (١٣٩٢ش). «واقع گرايي اجتماعي در شعر نازك الملائكة». فصلنامه لسان مبین، دانشگاه بين المللي امام خميني قزوین، السنة ٥، العدد ١٤، صص ٨٣-١٠١.
١٣. علي، عبدالرضا (١٩٩٥م). نازك الملائكة الناقد. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
١٤. محمدي، فاطمه (١٣٨٧ش). «پروين اعتصامي شاعر فضيلت وانسانيت». فصلنامه بانوان شيعه، السنة ٥، العدد ١٥، صص ٧-٣٦.
١٥. مدني، نسرين (١٣٨٦ش). «ادبيات تطبيقي وتطبيق شعر معاصر عرب وشعر معاصر ايران غاده السمان با تكيه بر شعر فروغ فرخزاد وغادة السمان». فصلنامه مطالعات ادبيات تطبيقي، دانشگاه آزاد جيرفت، السنة ١، العدد ٢، صص ١٦٩-١٧٨.

١٦. مرادي، فاطمه؛ سميع زاده، رضا (١٣٩٢ش). «ضرورت تعليم وتربيت زنان در انديشه قاسم امين مصري وپروين اعتصامي». فصلنامه مطالعات ادبيات تطبيقي، دانشگاه آزاد جيرفت، السنة ٧، العدد ٢٨، صص ١١٠-١٢٦.
١٧. نازك الملائكة (٢٠٠٨م). الأعمال الشعرية الكاملة. بيروت: دار العودة.
١٨. النشاوي، نسيب (١٩٨٤م). المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر. القاهرة: دار الكتب.
١٩. نميني، حسين (١٣٦٢ش). جاودانه پروين اعتصامي. طهران: نشر كتاب فرزنان.
٢٠. هدارة، محمد مصطفى (١٩٩٠م). الإنسان في شعر نازك الملائكة. الكويت: شركة الربيعان للنشر والتوزيع.
٢١. يوسف، غلامحسين (١٣٧٦ش). چشمه روشن. ط ٧، طهران: انتشارات علمي.